بلاغة القسم في الحديث النبوي الشريف

الأستاذة الدكتورة أميمة بدر الدين*

الملخص

القسم أسلوب عربي قديم استعمله العرب لتوكيد المعنى وإثباته، ولإبراز الجد فيه، وقد نزل القرآن الكريم بلغتهم فاستعمل القسم، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم فيما بعد للمعنى نفسه، إلاَّ أنه أعطاه معنى التعظيم لارتباط القسم النبوي باسم الله تعالى أو بصفة من صفاته، وتحريمه القسم بغير الله، وتنوعت صيغ المقسم به في الحديث إلاَّ أن أكثرها وروداً على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده، والذي نفسي بيده، وقوله: لا ومقلب القلوب إذا اجتهد في الدعاء، كما أشار رواة الحديث.

والقسم النبوي قسمان: القسم الظاهر، والقسم المضمر، وهو نوعان: ما دلت عليه اللام، والقسم الثاني: ما دل عليه المعنى، والملاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يظهر فعل القسم إلا نادراً، كما أنه لم يحذف المقسم عليه (جواب القسم) ولعل السبب في ذلك هو طبيعة مهمة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي التبليغ الذي يحتاج إلى الشرح والتفصيل والبيان ليفهم السامع، وللقسم النبوي قيمة بلاغية تمثلت بـ: الإيجاز في القول، وتوكيد الأمر وإثباته وإظهار الجد فيه، وبيان أهمية المقسم عليه، وتنويع أساليب الخطاب لدفع الملل عن السامع، وغيرها فكان القسم أسلوباً هادفاً ملتزماً بمبادئ الدعوة، مرسخاً لمبادئها، كما كان غيره من الأساليب النبوية الأخرى.

---

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق

قد تكفي اللمحة والإشارة في الانصياع للحق عند أصحاب النفوس الصافية، وقد تحتاج النفوس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل إلى مطارق الزجر وصيغ التأكيد حتى يتزحزح نكيرها، وقد أدرك العرب ذلك وهم أهل لسن وفصاحة، يعرفون قيمة الكلمة وتأثيرها، واختلاف الكلام باختلاف مقتضى الحال، فاستعملوا أساليب للتأكيد منها القسم، وهو أسلوب خطابي يتخلّله البرهان المفحم والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد، وقد نزل القرآن بلسانهم وطرقهم في الكلام فاستعمل القسم وكان له منهجه الخاص الذي أثار انتباه العلماء عبر التاريخ فكتبوا فيه كثيراً واجتهدوا في تفسيره وبيان منهجه وأعادوا، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو العربي القرشي فاستعمله أيضاً، إلا أن قسمه كان يختلف بعض الشيء عن القسم القرآني، إذ نهج النبي صلى الله عليه وسلم نهجاً خاصاً جعل صفة التعظيم لصيقة بالقسم، وذلك لملازمته القسم باسم الله تعالى أو ببعض صفاته ـــ خلافاً لما رأيناه في القرآن الكريم من قسم بالله أو بآية من آياته أو بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم ـــ مؤكداً ومنبهاً، معلماً ومربياً، فكان معلّماً في قسمه كما كان معلماً في كل أسلوب من أساليبه الخطابية التي استعملها في كلامه.

القسم لغة واصطلاحاً:

القسم في الأصل: هو القطع، ومنه قَسَمتُ الشيء وقسّمته، والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة، ولذلك شواهد: كالصريمة ،والقول الفصل، والإبانة والقطع، فهذا هو الأصل ثم اختص القسم من بين هذه الألفاظ بشدة الفصل بالقول[1].

والقسم بالتحريك هو اليمين، وكذلك المُقسم وهو المصدر مثل المُخرَج، وقد أقسم بالله واستقسمه به وقاسمه: حلف له، وتقاسَم القوم: تحالفوا، وفي التنزيل: {قَالُواْ

[1] - لسان العرب: (قسم)

تَقَاسَمُواْ بِاللّهِ}[2]، وأقسمت: حلفت، وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء المقتول[3]، ثم صار اسماً لكل حالف، ومنه قوله تعالى: {كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ،الّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ}[4]، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم، وتقاسموا: تحالفوا من القسم، اليمين، يريد لما تعاهدت قريش على مقاطعة بني هاشم وترك مخالطتهم، والمقسم: الموضع الذي حلف فيه، والمقسِم: الرجل الحالف.[5]

وقد تستعمل كلمة الحلف أو اليمين للإشارة إلى القسم أيضاً، فاليمين: الحلف والقسم والجمع: أيمن وأيمان، وهو لغة: القوة، قال تعالى: {لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}[6] أي بالقوة والقدرة، وهي الجارحة أيضاً[7].

وفي الحديث: (يمينك على ما يصدقك به صاحبك) أي يجب عليك أن تحلف له على ما يصدقك به إذا حلفت له والحلف والحلف: القسم، حلف أي أقسم، ومنه يحلِف حلْفاً وحلْفاً وحلَفاً ومحلوفاً[8].

وكان الجاهليون لا يفرقون بين فعلي حلف وأقسم في أقوالهم، إذ استعملوا الفعلين بمعنى واحد، ومن ذلك قول الشاعر[9]:

---

[2] - سورة النمل: آية 49

[3] - مفردات الراغب: 670

[4] - سورة الحجر، آية: 90 ــ 91

[5] - لسان العرب: (حلف)

[6] - سورة الحاقة، آية: 45

[7] -عمدة القاري: 23 / 163

[8] - لسان العرب: (حلف)، والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب يمين الحالف على نية المستحلف، رقم الحديث: 1653

[9] - التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: 513، والشاعر هو عنترة، الديوان، ص: 80

حلفت لهم والخيل تردي بنا معــاً   نفارقهم حتى يهــرّوا العواليــا
عوالي زرقاً من رمــاح ردينــةٍ   هرير الكلاب يتقــين الأفاعيــا

وقال زهير:

ألا أبلغ الأحلافَ عنّي رسالةً   وذبيانَ هل أقسمتم كل مقــسم

واصطلاحاً:

هو ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه بمعنى معظم عنــد الحــالف حقيقة أو اعتقاداً، وسمي الحلف يميناً لأن العرب كان أحدهم يأخذ يمين صاحبه عنــد التحالف[10]، وربما صرحوا بهذا المعنى كما قال جساس:

ســأؤدّي حــقّ جــاري   ويدي رهــنُ فعــالي

ومن هنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمان[11].

القسم في الحديث النبوي الشريف:

نهج النبي صلى الله عليه وسلم نهج العرب في كلامها كما قدمنا، وحذا حــذوها في أساليبها الخطابية، فنوع في الأسلوب وفي طريقة العرض فكان القسم واحداً مــن هذه الأساليب التي تحمل معنى التأكيد والإقناع، وإقامة الحجة والدليل على الــسامعين في كل زمان ومكان، ويصبح الأمر أكثر وضوحاً إذا تذكرنا أن النبي صلى الله عليــه وسلم كان معلماً، ومن شأن المعلم أن ينوع ويلون في أسلوبه حتى يدفع الملــل عــن السامع أولاً، وليقيم الحجة عليه ويقنعه ثانياً، يقول جرونيباوم: (يجب أن لا يغرب عن

---

[10] -من بلاغة القرآن: 45، د.محمد خضر حسين، ومباحث في علوم الحديث: مناع القطان، ص/290

[11] - إمعان في أقسام القرآن:41، والبيت في شعراء النصرانية، ص: 246، وجساس هو: ابن مرة بن ذهل بن شيبان من بني بكر بن وائل ، من أمراء العرب في الجاهلية، شعره قليل ، قتل نحو85 ق.هـــ، انظر ترجمته في: الأعلام:2/ 119، وفي شعراء النصرانية 246/1

البال أن محمداً إنما كان يبغي أن يعلم وأن يصلح)[12] ولما كانت مهمة النبي صلى الله عليه وسلم تعليم الصحابة وتصحيح عقيدتهم فقد أراد أن يرسي دعائم مجتمع قائم على التوحيد، بعيد عن كل أنواع الشرك من ناحية، ومن ناحية أخـرى أن يقـيم مـوازين أخرى لحياة جديدة يريد حمل الناس عليها، وإن كانوا من قبل ينكرونها أشد الإنكار، فالنبي صلى الله عليه وسلم يريد أن تتمحور حياة العرب حول الوحدانية وأن الله تعالى هو مدبر الكون وخالق الخلق وهو أهل للعبادة والطاعة وهو المعظم في هذا الوجود، فأي توكيد وأي تقديس يجب أن يرتبط به سبحانه وإلا لم تكن حقيقة مقبولة ولا مؤكدة أو مقدسة، لذا نراه ينكر عليهم ما سمعه منهم من قسم بآبائهم وأمهـاتهم، وعمـرهم وباللات والعزى، وبالكعبة ونهاهم عن ذلك.

كما أرسى قاعدة أساسية عامة يجب على الناس أن يلتزموا بها، وهي أن لا يحلفوا إلا بالله تعالى كما علمه الله في قرآنه، فقال: **{**وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ**}**[13]

وفي آية أخرى قـال تعـالى: **{** H I J K L M O P Q R **}**[14]

وفي ثالثة يقـول: **{**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّـؤُنَّ بِمَـا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**}**[15]

فكان توجيهه مباشراً أحياناً وغير مباشر تارة أخرى، فمن الأول: ما رواه أبو هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: (لا تحلفـوا بآبـائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله وأنتم صادقون)[16]، فما الآباء ولا الأمهات ولا الكعبة ولا غيرهما من المقدسات في ميزان الشرع بالتي تساوي جناح بعوضة، ما لم تكن مرتبطة بالله تعالى ، يقول تعالى في كتابه العزيز: **{**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَـسَاكِنُ

---

[12] -حضارة الإسلام: 109

[13] - سورة يونس، آية: 53

[14] - سورة سبأ، آية: 3

[15] - سورة التغابن، آية 7

[16] -والحديث رواه أبو داود في سننه، باب كراهية الحلف بالآباء، رقم الحديث: 3248

تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**}**[17] كما نهاهم أن يحلفوا بالأمانة فقال: (من حلف بالأمانة فليس منا)[18]، وقد علل الخطابي وجه الكراهة فيها، فبين أن ذلك كان (من أجل أنه أمر أن يحلف بالله أو بصفة من صفاته، وإنما هي أمر من أوامره وفرض من فروضه، فنهوا عن ذلك لما في ذلك من التسوية بينهما وبين أسماء الله تعالى وصفات)[19].

ومن الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم ــ وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلف بأبيه ــ فلم يوجه الخطاب له، بل جعله خطاباً للأمة جمعاء فقال معلماً وموجهاً: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)[20].

كما أنه لم يغض الطرف عمن أقسم بغير الله تعالى، فأقسم باللات والعزى، بل دعاه إلى ترك هذا القسم والتوبة عنه بقوله: لا إله إلا الله كفارة)[21] لقسمه، وتعبيراً عن إقلاعه عن هذا القسم الذي لا يتفق مع روح الإسلام ومبادئه، والأحاديث السابقة وإن تعددت فهي تحمل مقصداً واحداً تسعى إليه، وهو تطهير المسلم من تقاليد الجاهلية ومعبوداتها وصبغه صبغة إسلامية ينطق كل شيء فيها بالتوحيد والتسليم والإذعان لله تعالى.

صيغ المقسم به في الحديث النبوي:

والتزاماً بالمنهج النبوي في نهي الصحابة رضوان الله عليهم عن الحلف بغير الله تعالى، فقد كان في كلامه أول من التزم بهذا الأمر وسار عليه، فكان القدوة في قسمه

---

[17] - سورة التوبة آية: 24

[18] - والحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالأمانة، رقم الحديث: 3253

[19] - جامع الأصول: 11 /656

[20] - والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، رقم الحديث 6271/6270

[21] - والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا يحلف باللات والعزى، رقم الحديث: 6274

كما كان قدوة لهم في سلوكه وعمله وأخلاقه فلم يحلف إلا بالله تعالى أو بصفة من صفاته، وإن نقل عنه أنه أقسم مرة بغير الله كقوله للأعرابي (أفلح وأبيه إن صدق) أو كما في رواية أخرى: (دخل الجنة وأبيه إن صدق)[22] فقد فسر ذلك ابن الأثير بقوله: (هذه كلمة جارية على ألسن العرب، تستعملها كثيراً في خطابها وتريد التأكيد، وأما نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلف الرجل بأبيه فيحتمل أن يكون هذا القول منه قبل النهي، ويحتمل أن يكون منه على عادة الكلام الجاري على اللسان، وهو لا يقصد به القسم كاليمين المعفو عنها من قبيل اللغو، أو أنه أراد التأكيد لا اليمين، فإن هذه اللفظة تجري قي كلام العرب على ضربين: للتعظيم وللتأكيد، والتعظيم هو المنهي عنه وأما التأكيد فلا، لقول الشاعر[23]

لعمرُ أبي الواشين لا عمر غيرهم لقد كلّفتني خطة لا أريدها

فهذا توكيد لأنه لا يقصد أن يقسم بأبي الواشين، وهذا في كلامهم كثير)[24].

وقد تعددت صيغ القسم النبوي واختلفت صفات الله تعالى التي أقسم بها، ولكنها كلها تدور في فلك أن لا يحلف الرجل إلا بالله أو بصفة من صفاته، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يدركون الفرق بين صيغ القسم النبوي واختلافها في درجة القوة باختلاف الظروف والأحوال والدوافع والمثيرات، والمعلوم أن الصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بفعل القسم: أقسم أو أحلف متعدياً بالباء إلى المقسم به ثم يأتي المقسم عليه، وهو ما يسمى بجواب القسم، وقد رأينا ذلك في القرآن الكريم، كقوله تعالى: {وَأَقْسَمُواْ

[22] - والحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم الحديث: 3252

[23] - لم أقف على قائل هذا البيت.

[24] - جامع الأصول: 11 / 652

بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ}[25]، ولكن نظراً إلى كثرة الحلف ودورانه على الألسن صار يحذف منه فعل القسم ويكتفى بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة أو التاء، إلا أن القسم النبوي لم يصرح بفعل القسم ــ فيما وقفت عليه من أحاديث ــ إلا في قوله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر)[26]، فحذف المقسم به وذكر فعل القسم خلافاً لأقسامه الأخرى التي حذف منها فعل القسم وعوض عنه بالواو مع الاسم الظاهر المقسم به ولم

يستعمل غيرها، واستعمل في قسمه صيغاً متعددة أشهرها:

1ــ والذي نفس محمد بيده:

وهذه الصيغة والتي تليها من أكثر الصيغ وروداً في الحديث النبوي ــ وإن كانت بعض الأحاديث تشير إلى أن أكثر أقسام النبي كانت تأخذ صيغة أخرى ــ وفيها إقرار النبي صلى الله عليه وسلم بالربوبية لله تعالى من ناحية وإشارة إلى أن الأنفس بيده وهو الذي خلقها وهو الذي يحييها ويميتها، وليس لأحد مع الله في ذلك من شيء، ومن ناحية أخرى: هو تطهير لأنفس السامعين من أدران الشرك على مر الزمان ما دام هناك من يسمع ومن يقرأ، ثم لا يلبث النبي بعد هذه اللفتة النفسية أن يرسم صورة حوض الجنة لأصحابه كأنهم يرونها رأي العين ليزداد شغفهم وتعلقهم بها، وهو كلام على وجه الحقيقة واليقين حقيقة تختلف عن حقائق الدنيا اختلافاً بيناً، إن كان ذلك الاختلاف في عدد آنيته أم في لون مائه أم في طعمه وأثره في شاربه، فيقول: (والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة

[25] - سورة النحل: آية 38

[26] والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، رقم الحديث: 2588،

المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل)[27]. فقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشد أذهان السامعين من الصحابة ومن غيرهم ممن سيأتي بعدهم لأنه سيحدثهم عن أمر غيبي يتعلق بمصيرهم وبنتائج أعمالهم فلا بد أن يكون واضحاً تمام الوضوح، ومن أجل ذلك أنزل المخاطبين منزلة المنكر للخبر وهم في الحقيقة المصدقون المؤمنون بصحة ما يقوله، كما جرد نفسه من كل تأثير فيهم، إذ أعاد الأمر كله لله وحده وما هو إلا بشر كلف بتبليغ الأمانة، فهو محمد الذي عرفتموه لم يخرج عن طبيعته البشرية، وحكم الله ماض فيه ونفسه بيد خالقها كما أن أنفسكم بيد خالقها، وهو الحكم المهيمن على الخلق من الأحياء والجمادات فهو مالك الملك، ولا سبيل لمعرفة مقدسات أمة من الأمم أوضح من أيمانها وحلفها، وهذا أمر ملحوظ إلى يوم الناس هذا، وكلما كان المقدس أكثر تنزيهاً ورقياً كانت الأمة أصح عقيدة وأسلم عقلاً.

كما نسمعه يقسم بهذا القسم على أن شريعته ناسخة للشرائع السابقة، وأنّ على كل من جاء بعده من البشر أن يؤمنوا برسالته وأن يهتدوا بهديه، وإلا كان مصيرهم النار، وهذا الوعيد هو حقيقة لا خيال، والمقسم واثق من قوله متأكد من حدوثه فيقول: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)[28] فقد جاء جواب القسم جملة إنشائية لا تحتمل الصدق ولا الكذب فلا يدع مجالاً للسامع أن يكذب قوله، بل ينقله إلى

---

[27] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته، رقم الحديث: 2300، ويشخب، الشخب: السيلان، وأصله ما يخرج من تحت يد الحالب عند كل عصرة لضرع الشاة، النهاية: (شخب). الميزاب: القناة، فارسي معرب وفيه أربع لغات: مئزاب ومرزاب، ومزراب، وجمعه: مآزيب، المعرب للجواليقي: (أزب)

[28] -والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم الحديث: 153

سماع الحقيقة الخطيرة التي تتهاوى دونها النفوس وتختلط معها العقول، فالجزاء عظيم والموقف خطير وليس أمام الإنسان فرصة للتفكير والاختيار بل عليه الإذعان والتسليم لينجو بنفسه من هلاك مؤكد ومصير أسود، فالمخبر هو الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم

2- والذي نفسي بيده:

وهي الصيغة الثانية التي وردت كثيراً في القسم النبوي، وفيها إشارة واضحة من النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنه وإن كان نبياً، فإنه لا يملك من أمره شيئاً، فإن نفسه التي بين جنبيه بيد الله تعالى، وفيها تسليم مطلق لإرادة الله واعتراف بعبوديته وبشريته، فما هو إلا رسول مبلغ عن ربه، فها هو يقسم على أمر غيبي سيكون قبل يوم القيامة يعلمه ولا يعلمه قومه، ويراه ولا يرونه، ومن شأن هذه الأخبار أن يعززها المخبر بما شاء من المعززات والمؤكدات لأنها فوق إدراك البشر ليدفع الشك عن نفس تضيق بشريته عن إدراك ما لا تراه كما أن هذا التوكيد هو دليل ثقة المتكلم بما يقوله وإيمانه بوقوعه، فهو دليل صدق قائله حين يقع في المستقبل، فيكون امتداداً للمعجزة وتثبيتاً لمن جاء بعده، وهو نزول عيسى عليه السلام حكماً عدلاً بين الناس ليقيم شريعة الله في الأرض فيقول: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض بالمال حتى لا يقبله أحد)[29].

وقد يستعمل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصيغة للقسم على أمر لم يكن واضحاً عند الصحابة، أو قل كان مجهولاً عندهم، إذ استقر في أذهانهم أن الميت لا يسمع ولا يجيب، إلا أن النبي أراد أن يصحح هذه الفكرة ويبين للناس أن الميت يسمع ولكنه لا يستطيع الإجابة ـ وإن رأى بعض العلماء أن ذلك خاص بأهل القليب ـ

[29] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى حاكماً بشريعة النبي، رقم الحديث: 155

والمعلوم أن تصحيح المفاهيم المستقرة في أذهان الناس بحاجة ماسة إلى توكيد المعنى الجديد ليثبت هذه الحقيقة ويرسخها في الأذهان، فاستعمل النبي صلى الله عليه وسلم القسم وأتبعه بجوابه في صيغة الأسلوب الإنشائي ليثبت هذه الحقيقة ويرسخها في الأذهان، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك أسرى بدر

ثلاثاً ثم أتاهم، فقام عليهم فناداهم فقال: (يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فسمع عمر بن الخطاب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟! قال:(والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا)[30]

3ـ والله:

وهي صيغة أخرى استعملها النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان ورودها أقل من الصيغتين السابقتين، فلما أراد أن يبين للمسلمين منزلة الدنيا وضآلة شأنها عند الله تعالى، والناس ما رأوا غير دنياهم، وهم يرونها واسعة واسعة، ولم يروا الآخرة، فيقسم مؤكداً خبره ليلفتهم إليه، حتى لا تفتنهم سعة حاضرهم، إذ إن ما يملك منها الناس جميعاً ، يعادل لضآلته ما يصيب من البلل إصبعاً غمست في اليم، بينما اليم كله تشبهه الآخرة لبقائها واتساع أرجائها[31] وما دام هذا الأمر مجهولاً عند الناس وهم في عماية عنه، فقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم القسم والقصر لتأكيد هذا الأمر وإثباته في أذهان السامعين وإزالة ما يمكن أن يعلق في نفوسهم من التردد في إعطاء

---

[30] - ولحديث في صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، رقم الحديث 2874، ووجيفوا: أنتنت جثثهم، لسان العرب: (جيف)

[31] - الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ص 104

الدنيا هذه المنزلة والنظر إليها بهذا المنظور، ويشفع ذلك بالإشـــارة ليكـــون المعنـــى أوضح والصورة أثبت فقال: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل مـــا يجعـــل أحـــدكم إصبعه هذه ــ وأشار يحيى بالسبابة ــفي اليم، فلينظر بما ترجع).[32]

كما يقسم النبي على حق الجار ووجوب رعايته وحفظ حرماته، وهو أمر لم ينتبه الناس إلى خطورته وما قدروه حق قدره، فهو أساس لترابط المجتمع وتلاحمـــه، فلا يقسم مرة واحدة بل كرر القسم ثلاثاً، وهو أمر جعل الصحابة رضوان الله علـــيهم ــ وهم الذين يدركون الاختلاف في أسلوب النبي باختلاف دواعيه ــ يسألونه عن هذا الذي وصفه هذا الوصف المخيف ــ والله لا يؤمن ــ وكلهم قد فتح أذنيه ليسمع اسماً يسميه النبي لهم، إلا أن الإجابة كانت أعم مما تصوروه، إنه وصف ينطبق على كـــل من وصف بهذا الحديث في كل زمان ومكان فيقول: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قلنا من يا رسول الله ؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه)[33]، تعظيماً لهـــذا العمل وتحذيراً منه.

4- لا ومقلِّب القلوب:

فالقلوب بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، يصبح المؤمن مؤمناً ويمـــسي كـــافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً[34]، ومعنى مقلب القلوب: تقليبه قلب عبـــده عـــن إيثـــار

---

[32] - والحديث في صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامـــة، رقم الحديث: 2858

[33]- والحديث في صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقـــم الحـــديث: 5670، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم الحديث: 26

[34] - والحديث في سنن أبي داود، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، وقال: وهـــو حـــديث صحيح، ورواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، رقم

الإيمان إلى إيثار الكفر وعكسه، وقوله لا: فيه حذف، والتقدير: لا أفعل أو لا أترك وحق مقلب القلوب، وهو الله عز وجل، وقال الكرماني: أي يقلب أغراضها وأحوالها من الإرادة وغيرها، إذ حقيقة القلب لا تنقلب[35]، وقد أشار رواة الحديث إلى أن هذه الصيغة كانت مشهورة في قسم النبي صلى الله عليه وسلم، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه يستعملها لما كان يراه من إسلام من كان يكن العداوة للمسلمين فتتحول قلوبهم بين ليلة وضحاها إلى دعاة ومجاهدين لنصرة هذا الدين وأهله، وأحوال المسلمين في زمن النبي تشهد بذلك، فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (أكثر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلف: (لا ومقلب القلوب)، وفي حديث آخر عنه أيضاً (كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم: لا ومقلب القلوب)[36].

5-وربّ الكعبة:

والقسم بالكعبة المشرفة كانت عادة معروفة عند العرب، فجلّ أقسامهم المؤكدة كانت بالكعبة ومشاعر الحج، وقد أشار الفراهي إلى ذلك فقال: (والقسم بالأنصاب قليل، فجلّ أقسامهم المؤكدة بالكعبة ومشاعِر الحج، فإن العرب مع اختلاف دياناتهم في الجاهلية لم يختلفوا في تعظيم هذا البيت العتيق، وعلموا أنه أول بيت وضع للناس، حتى إنك ترى النصارى منهم كانوا يقسمون به[37]، قال عدي بن زيد:

سعى الأعداء لا يألونَ شرّاً ... عليك وربّ مكة والصليبِ[38]

الحديث: 2205

[35] - عمدة القاري: 23 / 161

[36] - والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، رقم الحديث: 6253

[37] - إمعان في أقسام القرآن: ص65

[38] - الديوان، ص: 38

وقال زهير:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوهُ من قريش وجرهمِ[39]

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينتزع مكانتها المادية من قلوب أصحابه بتوجيه إلهي غير قرآني إن كان هذا الرباط يوافق هوى في نفوسهم، فأمر أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس إشارةَ إلى أن الطاعة يجب أن تكون لله وحده، حتى إن قلوب بعض المؤمنين كادت تنفطر إثر هذا التوجيه الإلهي ـــ لولا إيمانها الراسخ ـــ ولما هدأت النفوس وسلمت الأمر إلى الله وأطاعته، أعاد للبيت مكانته وللمسلمين قبلتهم، ولكن بعد أن جعل الصلة بها خالصة لوجهه، قال تعالى: {قَدْ نَرَىَ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ}[40]، ومن هذا الباب جعل النبي صلى الله عليه وسلم الحلف برب الكعبة وليس بالكعبة تحقيقاً لهذا النهج الرباني التوحيدي، ورفضاً للنهج الجاهلي المرتبط بالأرض والأصنام وغيرها، فأنكر عليهم قسمهم بالكعبة وأمرهم أن يحلفوا برب الكعبة، فقد روي أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إنكم تنددون وتشركون وتقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربّ الكعبة)[41]، وكان عليه الصلاة والسلام أول المهتدين بهذا الهدي، فلما أراد أن يبيّن خطر الغنى مع عدم أداء حق الله فيه، والنهاية المفجعة لفاعل ذلك، أقسم برب الكعبة، وقد أشار أبو ذر رضي الله عنه إلى ذلك فقال:

(انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: هم الأخسرون وربّ الكعبة، قال: فجئت حتى جلست فلم أتقارّ أن قمت، فقلت: يا

[39]- الديوان: ص78

[40] - سورة البقرة، آية: 144

[41] - والحديث رواه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، رقم الحديث: 378

رسول الله فداك أبي وأمي مَنْ هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا)[42]، فكان في قسمه هذا ترسيخ لفكرة التوحيد وإخـلاص العبودية لله، ونفـي التعظيم عن غيره.

وايم الله:

وقد وردت هذه الصيغة في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما، عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سمع بعض الناس يطعنون في إمارة أسامة بـن زيد رضي الله عنهما، فقام الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (إن كنتم تطعنون فـي إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقـاً للإمـارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده)[43]، قال العيني: (وايم الله يعني: يمين الله، ولكن معناه يمين الحالف بالله، لأنه لا يجـوز أن يوصـف الله بأنـه يحلف بيمين، وإنما هو من صفات المخلوقين)[44] ولا يخفى على الناظر قـصر هـذه الصيغة وإيجازها إذا قيست بصيغ القسم الأخرى التي استعملها النبي صلى الله عليـه وسلم، ولعل الموقف الذي دعاه إلى القسم من الخطورة بحيث لا مجال فيه للإطالة أو التريث، فالأمر يتعلق بطاعة الله وطاعة رسوله، وهو أمر أثار غـضب رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فأغلظ في استنكاره، فليس هذه هي المرة الأولى التي يخـالفون فيها أوامر رسولهم فقد طعنوا في إمرة زيد سابقاً وهم اليوم يطعنون في إمـرة ابنـه، وقد قدمهما رسول الله، وهو ما يتنافى مع روح التسليم والطاعة لله ولرسـوله وهـو الذي لا ينطق عن الهوى، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَـضَى اللّـهُ

[42] - والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: زكاة البقر، رقم الحديث: 1391، وفي الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، رقم الحديث: 6262، ولم أتقارّ: أي لم ألبـث، النهايـة: (قرر)

[43] - والحديث في صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول النبي: وايم الله، رقـم الحـديث: 6252

[44] - عمدة القاري: 23 / 167

وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}[45] فاحتاج الموقف إلى مثل هـذا القسم، فأنزل المخاطبين منزلة المنكر وخاطبهم خطابه فاجتمع في خطابه هذا القسم والتوكيد الذي كرره في حديثه تأكيداً لإنكاره لما قالوه وتعظيماً لفعلتهم .

والذي لا إله غيره:

ولما كان الإسلام قد حقن دماء الأبرياء من المسلمين ومن غيرهم، فقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين حرمة دم المسلم، لأن الاعتداء على حياته معصية كبرى لا ينجو صاحبها من عذاب الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مّتَعَمّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً}[46] فقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينبه الناس إلى حرمة دم المسلم، وأنه لا يحل إلا في أمور شرعها الله فقال: (والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله إلا ثلاثة نفر: التارك للإسلام المفارق للجماعة، و الثَّيِّب الزاني، والنفس بالنفس)[47].

فأطال صيغة القسم وأخرجها بأسلوب القصر، إذ قصر الألوهية على الله تعالى توكيداً للركن الأساسي من أركان الدعوة وهو وحدانية الله، وإقراراً بربوبيته، ولما كان أصل الأيمان الدينية الإشهاد، فقد جعل الله تعالى شهيداً على صحة ما يقول، وفي هذا ما لا يخفى من إظهار الجد في بيان فظاعة ما يقسم عليه.

والله الذي لا إله إلا هو:

إعلان لوحدانية الله الذي لا يقسم إلا به، إلا أنه في هذه الصيغة استعمل الضمير المنفصل، فمنح الصيغة الرهبة والعظمة، فهو الذي لا يشاركه أحد في حكم هذا الكون وتدبير أمره، فجعل الله شاهداً على ما يقول، كما جعله القسم الذي تفصل فيه القضايا

---

[45] - سورة الأحزاب، آية 36

[46] - سورة النساء، آية93

[47] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم الحديث: 1676

وترد به الحقوق إلى أصحابها، إشارة إلى أن العالم والمشرع هو الله، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله إياه، ولذا فقد حلّف النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلاً شكي إليه فقال له:(احلفْ بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندي شيء).[48] فجعل الله شهيداً على ما يقوله إذ أصل الأيمان الدينية الإشهاد، وفي هذا مالا يخفى من التعظيم للمقسم به والتهويل للمقسم عليه، فالأمر لا يحتمل الكذب والتلاعب فالشاهد من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والذي نفس أبي القاسم بيده:

وهذه الصيغة من القسم بما فيها من طول وزيادة ما لا يخفى على كل من سمعها أن الأمر الذي سيقسم عليه النبي صلى الله عليه وسلم عظيم، وأن الظروف التي دعته إلى استعماله تختلف عن ظروف قسمه بصيغه الأخرى وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يثبت في أذهان المسلمين والإنسانية أنه ما هو إلا بشر، فجرد من نفسه شخصية أخرى ـ هي شخصية أبي القاسم ـ هذا البشر الذي يعيش بينكم وتعرفونه حق المعرفة ما هو إلا بشر مثلكم يتلقى الأحكام عن ربه، وحكم الله جار عليه كما هو جار عليكم، وما محمد إلا رسول مخبر عن ربه، فنفسه بيد باريها يقلبها كما يشاء، فعبرت هذه الصيغة عما في نفس مقسمها من إصرار وثبات على ما سيقسم عليه أو ما في نفسه من إظهار خطورته، فاختلاف صيغ القسم هي تعبير واضح عما في نفس المقسم من التأثر والانفعال لنفي ما يتحدث عنه أو تثبيته، وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا فكانوا يفرقون بين صيغة وأخرى في درجة القوة، حتى قال أبو سعيد الخدري: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي

---

[48] - والحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، رقم الحديث: 3620

نفس أبي القاسم بيده)[49] والتقدير: لا أفعل أو لا أترك أحلف على ذلك بمن ملك نفس أبي القاسم بيده.

ولعلنا إن وقفنا عند صيغ القسم الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم نتبين حقيقة واحدة، هي حقيقة الدعوة إلى التوحيد والإقرار بالعبودية لله تعالى وبربوبيته، فلا إله غيره ، ومهما اختلفت هذه الصيغ وتبدلت فإن هدفها واحد ورابطها ثابت لا يتغير، ولذا وجدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يهدف إلى ترسيخ هذه الفكرة في نفوس الصحابة، وهم ما زالوا قريبي عهد بالجاهلية، وإلى تعويد ألسنتهم عليها لتحل محل الصيغ القديمة التي لا تتماشى مع روح الإسلام ومبادئه لفظاً واعتقاداً.

أقسام القسم:

والقسم النبويُّ ضربان: القسم الظاهر، والقسم المضمر

القسم الظاهر: وهو كل قسم ذُكر فيه المقسم به مع الواو، و قد رأينا أن الأقسام النبوية اختصت دائماً بالواو مع الاسم الظاهر ولم يذكر فيها فعل القسم، ولعل كل الأحاديث التي ذكرناها في الأمثلة السابقة من هذا النوع، و من هذا القبيل أيضاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حكمه على رجل وامرأة زنيا:(والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة و الغنم رد[50]، وعلى ابنك جلد مئة وتغريب عام)[51].

القسم المضمر:

وهو كل كلام لم يذكر فيه القسم صريحاً، أي لم يصرح بالمقسم به فيه، وهو قسمان: قسم دل عليه المعنى ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم حجة الوداع: (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم

[49] - والحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، رقم الحديث: 3264

[50] - الرد: المردود،، غنمك ووليدتك مردودة عليك ، النهاية: (رَدَدَ).

[51] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، رقم الحديث: 1697

هذا....)، والتقدير: والله إن دماءكم، وقسم دلت عليه اللام الواقعة في جوابه للإشارة إليه، وهذا القسم موجود في الحديث وإن كان أقل وروداً من القسم الظاهر، و من هذا القبيل ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (ليأتين على الناس زمان يطوف فيه الرجل بالصدقة من الذهب ثم لا يجد أحداً يأخذها منه، ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال و كثرة النساء)[52].

وفي حديث آخر رواه سهل بن سعد رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديثه عن أحوال الناس يوم القيامة وحسابهم: (ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبع مئة ألف لا يدري ــ أبو حازم أيهما قال ــ، متماسكون آخذ بعضهم بعضاً، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر)[53] وقد تجتمع في الحديث الواحد روايتان، الرواية الأولى بذكر المقسم به، والثانية بحذفه، ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (.... لئن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به و يستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول)[54] وفي رواية أخرى جاء القسم صريحاً ظاهراً فقال (والله لئن يغدو أحدكم .....).

مما يشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يروي الحديث في مناسبتين مختلفتين، فتختلف صيغه باختلاف سامعه وظروفه التي قيل فيها، إذ كان القسم النبوي يتناسب مع الظروف والأحوال التي يقال فيها فتختلف صيغه باختلاف ذلك.

---

[52] - والحديث رواه البخاري في الصحيح، كتاب الزكاة، باب في الصدقة قبل الرد، رقم الحديث: 1338، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم الحديث: 1012

[53] - والحديث في صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم الحديث: 3075

[54] - والحديث في صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم الحديث 1042

وقد يرد في الحديث الواحد قسمان أحدهما "قسم صريح" و الثاني " سم مضمر" أو العكس، ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال سليمان عليه السلام: (لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون).[55] وفي هذا ما لا يخفى من اختلاف جواب القسم الأول عن جواب القسم الثاني، ففي الثاني من التأكيد ما ليس في الأول، وفيه من الدلالة على ثقة المقسم وجديته وحثه للمسلمين على أن يربطوا كل عمل يقومون به بالله تعالى فهو مسبب الأسباب وميسرها، فلو قال: إن شاء الله لأنجبت كل امرأة منهن فارساً يجاهد في سبيل الله.

وقد فرق د. السامرائي بين هذين النوعين فقال: (وعلى أية حال فإن القسم الظاهر يختلف عن المؤكد بالنون أو باللام الموطئة من نواح أهمها:

1- إن ما ذكر فيه القسم صريحاً أكد مما لم يذكر فيه القسم صراحة، وذلك لأنه توكيد وزيادة.

2- إنه في القسم الصريح يقصد لفظ المقسم به ويراد كما يقصد جوابه، فالقول والله أو ورب الكعبة وغير ذلك مما يقسم به يراد لفظ المقسم به لأمور بلاغية أو تعظيمية، أو غيرها كما يراد من جوابه.

3- ينبني على ذكر المقسم به صراحة أحكام شرعية، كالبر والحنث، والصحة والبطلان، مما لا يكون فيما يسمونه

بالقسم المضمر، فالقسم بغير الله باطل، ومن أقسم بالله ولم يبر بقسمه فهو حانث، وعليه كفارة بخلاف المؤكد

55- والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين رسول الله، رقم الحديث: 6263، ومسلم في صحيحه، كتاب لإيمان، باب الاستثناء، رقم الحديث: 1654

توكيد القسم، فإنه لا يجري عليه حكم اليمين)[56] وهو ما جعل د السامرائي ينفي أن يكون المؤكد باللام أو بالنون قسماً.

جواب القسم:

إن الناظر في أقسام القرآن يجد أن المقسم عليه قد يحذف إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه، كقوله تعالى: {صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ}[57] فإن المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقاً من عند الله غير مفترى، ولهذا قال كثيرون: إن تقدير الجواب: إن القرآن لحق"[58] وقال السيوطي: "وأكثر ما يحذف الجواب إذا كان في نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه،فإن المقصود يحصل بذكره فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كقوله تعالى: (ص والقرآن ذي الذكر) فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، والشرف و القدر ما يدل على المقسم عليه وهو كونه حقاً من عند الله تعالى).[59]

إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم وكما رأينا في الأحاديث جميعها التي أوردناها، أو التي يمكن أن نستدل بها على ما نريد الحديث عنه لم يحذف جواب القسم البتة ، ولعل السبب الحقيقي الذي يفسر ذلك هو طبيعة مهمة النبي صلى الله عليه وسلم، المتمثلة في التبليغ والتعليم، أو أن يكون الهدف من ذكره هو القصد إلى جواب بعينه وهو ما قصده النبي صلى الله عليه وسلم، لذا خلا قسمه من حذف الجواب على الرغم من كثرة ما ورد في أحاديثه من أقسام، وقد تنوع المقسم عليه في الحديث النبوي، فقد يكون جملة خبرية ــ وهذا هو الغالب ــ أو جملة إنشائية وهو أقل، ومنه

---

[56] - معاني القرآن: 4 /159

[57] - سورة: ص آية: 1

[58] - من بلاغة القرآن: 172

[59] - الإتقان: 2 /171

قوله صلى الله عليه وسلم: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع)[60]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لجاره ــ أو قال لأخيه ــ ما يحب لنفسه)[61].

ويمكن أن نصنف ما أقسم عليه النبي صلى الله عليه وسلم في الأمور الآتية:

أولاً: ما يتعلق بأمور الاعتقاد والعبادة:

فقد أقسم على أمور تعبدية دنيوية وعلى مسائل تتصل بعقيدة المسلم منها: حرمة دم المسلم إلا في ثلاث، حق الجار وضرورة أن يحب الإنسان لجاره ما يحب لنفسه، لأن ذلك من علامات الإيمان، عقوبة تارك الزكاة، ضآلة شأن الدنيا وحقارتها أمام الآخرة، وعلى فضل الأنصار وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم فقد روي أن امرأة من الأنصار جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (والذي نفسي بيده إنكم لأحب الناس إلي ثلاث مرات[62] موجهاً القول إليها .

ولما كان العمل من الأمور التي تحفظ كرامة المسلم وتحفظ ماء وجهه، وتجعل منه إنساناً ناجحاً في حياته كريماً، حراً، فقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية العمل وكراهية السؤال، مهما كان العمل بسيطاً فقال: (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى).[63]

---

[60] - سبق تخريجه: ص 7

[61]- والحديث في صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث:13

[62]- والحديث في صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الأنصار، رقم الحديث: 2509

[63] - سبق تخريجه ص11.

ومن الأمور التعبدية التي قد يغيب عن الناس أهميتها، تسوية الصفوف في الصلاة، فقال: (لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم)[64]، فقد استغنى عن القسم بجوابه، فأكد بالنون فجاء القول على نية اليمين وإن لم يذكر المحلوف به،[65] كما نبههم إلى فضل صلاة الجمعة وضرورة حضور المسلمين لها، فالصلاة ليست عادة يقوم بها الإنسان ولكنها فريضة تعلم الإنسان النظام والطاعة والتزام الجماعة وعدم مخالفتها."

ثانياً القسم على بعض ما سيحدث في المستقبل من الملاحم والفتن:

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن حوادث ستكون في المستقبل، وهي من الغيبيات التي أطلعه الله عليها وقد يدخل الشك بها في النفس لعدم وجود الدلائل والأمارات المبشرة بها والمقربة إليها، ومع صدق النبي صلى الله عليه وسلم وعدم الشك في أقواله فإنه ينزل المخاطب منزلة الشاك فيخاطبه بخطابه، ويعامله معاملته وذلك لتأكيد هذه الأخبار للشاك وللمصدق، وليضعها كل إنسان أمام عينيه موضع المسلم به المجزوم بحدوثه، تصديقاً لنبوته وثقة بخبره قبل أن يحدث ما يتحدث عنه، لتشهد الإنسانية قديمها وحديثها صدق رسالته وصحة أقواله، ومن ثم ليحذر المؤمنون على أنفسهم هذه الأمور النازلة ويتقوها ويعملوا ما بوسعهم للخلاص منها ، فقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم عما سيكون في المستقبل من حب المسلمين لتقليد النصارى واليهود، واحتذائهم حذوهم، والسير على خطاهم فقال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن ؟).[66]

---

[64] - والحديث في صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف عند الإقامة، رقم الحديث:436

[65] - الكتاب 1/ 455

[66] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم، باب: التغليظ في ترك الجمعة، رقم الحديث: 865

ثم يحدث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عما سيكون في المستقبل من اغتناء الناس وقلة الرجال وكثرة النساء، حتى إن الرجل الواحد تلوذ به النساء الكثيرات، قال: (ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، ثم لا يجد أحداً يأخذها منه، ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء).[67]

ومن الأمور الغيبية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنها: نزول عيسى عليه السلام وحجه قبل يوم القيامة وكسره للصليب وقتله للخنزير،وفي حديث آخر يقول: (والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليثنيهما)[68]، وغيرها من الفتن التي سنتحدث عنها في حديثنا عن معاني القسم

ثالثاً: القسم على أحوال يوم القيامة، و ما سيكون فيه:

ومن الأمور التي أقسم عليها النبي صل الله عليه وسلم دخول سبعين ألفاً أو سبع مئة ألف الجنة بغير حساب كما حدثنا عن صفة الحوض وآنيته وعرضه ومائه، وأن المسلمين هم نصف أهل الجنة، فقال:

(والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة)[69]، كما أخبرنا عن فضل غفار وأسلم ومزينة وجهينة على أسد وغطفان، فقال: (والذي نفس محمد بيده

---

[67] - والحديث في صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم الحديث: 1338

وفج الروحاء: الفج هو الطريق الواسع بين جبلين، وفج الروحاء: طريق سلكه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر وعام الفتح والحج، لسان العرب مادة: (فجج)

[68] - والحديث في صحيح مسلم، كتاب الحج، باب إهلال النبي صلى الله عليه وسلم وهديه، رقم الحديث: 1252

[69] - والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم الحديث 6163

لغفار وأسلم ومزينة ومن كان من جهينة ـــ أو قال جهينة ومن كان من مزينة ـــ خير عند الله يوم القيامة من أسد وطيء وغطفان)[70].

وقد يستفيد النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث المادية التي تحدث أمامه لذكر فضائل بعض الصحابة لتكون المقولة أكثر تأثيراً، فقد أهدي إليه جبة من الحرير وكان قد حرم، فتعجب الناس منها فقال:

(والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا)[71]، وكما يخبرنا عن سعد وأمثاله يحدثنا عن فئة أخرى غيرت وبدلت بعده، فاستحقت إبعاد النبي صلى الله عليه وسلم لها عن حوضه يوم القيامة، فيقول: (والذي نفسي بيده لأذودن رجالاً عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض) [72]

ولما كان يوم القيامة هو يوم العدل والنصفة، وهو الذي ينتظره كل ضعيف مستضعف، فقد أقسم النبي على أن الحقوق سترد إلى أصحابها يوم القيامة، حتى ليقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[73].

معاني القسم:

والقسم من الأساليب الإنشائية التي يؤتى بها للتوكيد،إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمله في حديثه فأعطى الكلام معاني أخرى إلى جانب هذا المعنى، منها:

---

[70] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل غفار وأسلم ومزينة وأشجع، رقم الحديث: 2521

[71] - والحديث في صحيح مسلم، كتاب الهبة، باب: قبول هدية المشركين، رقم الحديث: 2473

[72] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا محمد، رقم الحديث: 2302

[73] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: 2582، والجلحاء: التي لا قرن لها النهاية: (جلح)، والقرناء: التي لها قرون.

1- التحذير والترهيب:

ويكون ذلك التحذير إذا ما اعتدي على حق من حقوق الله ، فيأتي القسم النبوي ليضع حداً لهذا المعتدي ويحذره من عواقب اعتدائه، ويعلن للناس جميعاً أنه لا تهاون ولا تسامح في هذا الأمر، فها هو ذا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبيبه يأتي ليشفع للمرأة المخزومية التي سرقت فأراد رسول الله أن يقطع يدها، فيقول رسول الله كلمته التي ما تزال تدوي في آذان جميع القائمين على أمور الناس إلى يوم القيامة، تلك الصرخة التي توقظ النائم وتنبه الغافل وتحذر الظالم، وتربي المعتدي على حقوق الآخرين (وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[74]، وفيها يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم نزاهة الإسلام وعدالة نبيه التي لا يستقيم المجتمع إلا بها، فلا شفاعة ولا مواربة ولا محاباة في حد من حدود الله لجاه أو مال أو شرف مزيف، فالشرف الحقيقي في الاستقامة وعدم التعدي على حقوق الآخرين وأموالهم، ولا نظر إلى صلة دنيوية مهما تأصلت وعمقت يطغى على إقامة ما أوجب الله أن يقام لسلامة دينه ولكرامة المؤمنين وصيانة حقهم، فصلة النبوة بين محمد وبين فاطمة ابنته لا تحرك رأفة النبي صلى الله عليه وسلم فيرحمها من قطع يدها إذا أوجب الإسلام قطعها، ولا أكرم من محمد حاكماً ولا من فاطمة محكوماً عليه فسواهما أولى بالحذر من المخالفة، ومن المعلوم في الحديث بناء الأمر على أداة الشرط الدالة على الافتراض، وقد يلمس قارئ الحديث أن الانفعال قد بلغ ذروته حين قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا القسم، وأنها بلغت حداً جازماً فاصلاً يخرس كل شفيع أحمق إلى يوم القيامة، وقد زاد الأمر وضوحاً إتباعه اسم فاطمة بقوله بنت محمد له قيمته في تقرير مضمون الكلام، إذ لا يدع مجالاً للشك في تحديد أعلى صلة

---

[74] - والحديث في صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع.

بين الحاكم والمحكوم عليه وذلك ليكون أوقع في نفس سامعه في مقام الترهيب والتحذير.

وهو ما نلمحه أيضاً في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حذر فيه المسلمين من ترك صلاة الجماعة لما فيها من توطيد أواصر المحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي، فهي تعلم الإنسان الطاعة والنظام والتزام الجماعة وعدم مخالفتها، وهو ما يحاول النبي غرسه في نفوس المسلمين، فيقول: (لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين)[75] فقد حذف فعل القسم وقام الجواب مكانه إشارة إلى أن الأمر خطير ولا وقت للتأجيل أو الإطالة، ففي هذا العمل فكاك الأمة وضياعها، فلا تعلم بعد فعلها هذا ما سيقدر الله عليها من الغفلة والضياع والبعد عنه وما في ذلك من ضنك العيش وسوء العاقبة.

كما يحذر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة من تركها لعملين هما سبب كرامتها وعزتها، وهما مقياس خيريتها وفضلها على الأمم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[76] وإلا فلا فضل لها، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[77] إنه التحذير النبوي الذي لا يقول إلا حقاً، ولا ينطق إلا صدقاً، ومع ذلك يستعمل القسم تأكيداً للشاك والمنكر ابتداء" لتصور الحقيقة أمام أعينهم وكأنها ماثلة أمامهم، برهاناً على صدق نبوته، ليحذر المؤمنون ويلتزموا بأوامر ربهم حماية لأنفسهم من غضب الله تعالى عليهم، وإغلاق أبواب

[75] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة، رقم الحديث: 865

[76] - سورة آل عمران، آية: 110

[77] - والحديث رواه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث: 2259

السماء دونهم إذ يدعون في أوقات الشدة والعذاب فلا يستجاب لهم، وقد أكد هذا الأمر بالقسم وباللام والنون المشددة وذلك إشارة إلى خطورته وتحذيراً للمؤمنين من الوقوع فيه، قبل أن لا ينفع الندم والدعاء.

2-التحريم والإباحة:

وكما حذر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة أموراً خطيرة، فقد حرم أشياء كانت حلالاً، ومنها تحريمه الذهب على الرجال وقد كان صلى الله عليه وسلم قد صنع خاتماً لنفسه من ذهب، فصنع الناس مثله فلما حرم الذهب جلس على المنبر فنزعه ثم قال: (إني كنت ألبس هذا الخاتم وأجعل فصه من داخل فرمى به، ثم قال: والله لا ألبسه أبداً، فنبذ الناس خواتيمهم)[78] فبين لهم بالقدوة الحسنة تحريم هذا الخاتم فكان أول من ترك لبسه فاهتدى الصحابة به وفعلوا فعله، وقد جاء بالقسم ليبين حرمة لبسه بعد أن حرمه الله ويظهر للمخاطبين الجد في القول والتصديق بالعمل.

3- الحض والترغيب:

فقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم أهمية الجهاد في سبيل الله، وأشار إلى فضله، وذلك عن طريق الحديث عن مكانة الشهيد ومنزلته عند الله، كما دعا المسلمين إلى عدم التقاعس والتكاسل عن تلبية داعي الجهاد، وأكد أنه لولا أن يشق على المسلمين ما تخلف عن سرية تغزو في سبيل الله، فقال: (ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء كهيئته يوم كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت

78 - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ونسخ ما كان من إباحته في أول الإسلام، وفي طرح الخاتم، رقم الحديث: 2019

أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل)[79]، فأعاد يمينه للمبالغة في ترغيب المسلمين في الجهاد، وحضهم عليه، لما أعده الله للشهيد من الأجر، فالجهاد باب العزة والمنعة للمسلمين، وبه تفتح الأبواب للدعوة فيقوم المسلمون بما أمرهم الله به من تبليغ رسالة ربهم للناس جميعاً.

كما يرغب الناس بجنان الله تعالى وذلك بوصفه لما أعده الله لعباده المؤمنين، مقسماً على صحة ما يقول ــ وإن كان ليس بحاجة إلى قسم وهو الصادق الأمين ــ ولكنها الدعوة الإنسانية فيها المصدق وفيها الشاك وفيها المنكر، فيخاطبهم خطاب المنكرين ليقتلع الشك من صدور الشاك وليزيد المؤمن إيماناً وتصديقاً، وهو الواثق من كلامه، المتأكد من حدوثه كما قال، فها هو يصف أدنى أهل الجنة منزلة، فيجعل الغائب حاضراً، والبعيد قريباً مشاهداً، فيقول: (والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر أو هجر ومكة)[80]

4-التوسع والإباحة:

ومن الأمور التي أقسم عليها النبي صلى الله عليه وسلم فضل دوام الذكر والمثابرة عليه، ومع علم النبي بطبيعة الإنسان وما يعتريه أحياناً من السلوى والنسيان والكسل والتقصير بسبب كثرة مشاغله وحاجاته البشرية، فقد أقسم النبي على أن الناس لو يبقون على ما هم عليه من الذكر والعبادة لصافحتهم الملائكة، إلا أن ذلك مستحيل فالإنسان بين عبادته وبين أعماله ومشاغله، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم،

---

[79] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم الحديث: 1876

[80] - والحديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، رقم الحديث: 194

ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات)[81] إشارة إلى أن الإنسان لا يبقى دائماً كما كان في أثناء جلوسه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبين لهم من خلال قسمه أن اختلاف الأحوال أمر معروف مباح لتناسبه مع الطبيعة البشرية، وهو باب من أبواب رحمة الله لعباده.

5-الإشارة إلى فضل المخاطَبِ ومدحه:

وهو ما نلمسه في حديثه عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، ففي حديثه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد عرف منه النبي قوته في الحق وصلابته فيقول مؤكداً خوف الشيطان منه، مقسماً بالذي نفسه بيده: (والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً، إلا سلك فجاً غير فجك)[82] تعظيماً لمكانته وهيبة منه.

6-تعليم الصحابة أنه يجوز القسم من غير استحلاف:

وهو ما استخلصه العيني من خلال حديثه عن قسم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (وفيه جواز الحلف من غير استحلاف)[83].

الدور البلاغي للقسم النبوي:

استعمل النبي صلى الله عليه وسلم القسم لما فيه من معنى التوكيد، ولما يتضمنه هذا الأسلوب من إظهار الجد في القول، ومن تنبيه على أهمية المقسم عليه، والنبي

---

[81] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب: فضل الذكر والفكر في أمور الآخرة، وجواز ترك ذلك في

بعض الأوقات، رقم الحديث: 2750

[82] - والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، رقم الحديث: 3120، وفي فضائل الصحابة، باب فضل عمر بن الخطاب، رقم الحديث: 3480

[83] - عمدة القاري: 5 / 164

صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الذي لم يترك باباً للإبلاغ إلا سلكه كان القسم واحداً منها حمل من المعاني الكثير ورفع عن النبي صلى الله عليه وسلم عبء التكرار والإعادة والاستدلال والبرهان على صدق ما يقول، وقد أشار الفراهي إلى غنى القسم بالمعاني البلاغية فقال: (إن في أسلوب القسم معاني مفيدة للاستدلال، مما يفتح عليه من البلاغة أبواباً، ويلقي عليه من المحاسن جلباباً)[84] فللقسم إذن معانٍ بلاغية متعددة، يمكن أن نذكر منها:

1-توكيد الأمر وإثباته:

والقسم من المؤكدات اللفظية القوية التي كان عليه الصلاة والسلام يؤكد به ما يستحق المقام تأكيده من المعاني،[85] وهو ما أشار إليه السيوطي قديماً فقال: (والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل قوله تعالى: **{**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**}**[86]، قسماً وإن كان فيه إخبار بشهادة، لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمي قسماً)[87] كما أشار إليه الشيخ القطان حديثاً فقال: (والقسم من المؤكدات التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن للناس كافة ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد، فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة)[88].

ويمكننا أن نلحظ هذا المعنى في أي حديث من الأحاديث السابقة، ومنها على سبيل المثال: قوله صلى الله عليه وسلم:(والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويفيض بالمال حتى لا

[84] -إمعان في أقسام القرآن: 94

[85] - الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: 104

[86] - سورة المنافقون: آية 1

[87] - الإتقان: 2 / 169

[88] - مباحث في علوم القرآن: 301

يقبله أحد)[89]، فالنبي صلى الله عليه وسلم واثق مما سيكون في المستقبل فأكد قوله بالقسم وباللام الواقعة في جوابه، ليؤكد للسامع في كل زمان ومكان حدوث ما أخبر به، وأنه واثق من حصوله كأنه يراه رأي العين فلا مجال لإنكاره، فيؤمن به ويتوقع حدوثه.

2-دلالة القسم على الجد في القول:

ويظهر لنا الجد في القول، والصدق في المقسم عليه بشكل واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل)[90]، وهذا القسم المتكرر فيه من التأكيد وإظهار الجد ما لا يخفى على عربي، وقد علم: (أن الحر إذا أقسم على أمر فقد بالغ في إظهار الجد منه، ونفى عن نفسه الإهمال والتهاون)[91].

3 -إبهام طريق الإنكار على المخاطب:

فالقسم أسلوب من أساليب الإنشاء غير الطلبي لا يحتمل الصدق والكذب، فإن شاء المخاطب أنكر جواب القسم إذا كان خبراً، ولكن لا يمكن أن ينكر القسم نفسه، كما أنه لا يتوجه إلى إنكار الصفة مع أنهما في الحقيقة من الأخبار، قال القشيري: (إن

---

[89] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب إهلال النبي صلى الله عليه وسلم وهديه، رقم الحديث: 1252

[90] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم الحديث: 1876

[91] - الإمعان: ص 94، والقرآن ونصوصه: ص 317

الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين، إما بالشهادة وإما بالقسم فذكر الله تعالى النوعين حتى لا يبقى لهم حجة)[92] وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤكد للسامع صحة ما يقول وأن وقوعه حقيقة لا مراء فيها، فاستعمل القسم لينزع ما في نفس المخاطب من الإنكار أو الشك، فها هو ذا يقصد مكة معتمراً فيصده أهلها عنها، ويعقد معهم صلح الحديبية، فيثير ذلك حزن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وقد اشتاقت أنفسهم لمكة وإلى بيت الله الحرام، ورأوا أن يقاتلوا قريشاً ويدخلوا مكة عنوة، وفي هذه الأثناء تنزل سورة الفتح وتصف هذا الصلح بأنه فتح، قال تعالى: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً}**[93] فيقول رجل من الحاضرين: أفتح هو ؟ فيجيبه النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفس محمد بيده إنه لفتح)[94]

فكأن النبي قد استشعر إنكار السائل لما يقول وشكه في صحة هذا الأمر فأراد أن يثبت صدقه وصحته وثقته فيما يقول، وأن ينزع ما في نفس السائل من الشك والإنكار، فاستعمل القسم بصيغته التي تحمل في طياتها معنى التسليم لأمر الله، وبأن ما يقوله ليس من عنده، وإنما هو خبر السماء الذي لا يكذب، والحقيقة التي لا تتغير، إنه لفتح في وصف الله تعالى، وهو مقدر الأقدار ومبدل الأحوال فاستعان بالقسم وإن واللام في موضع واحد لتحقيق هذا الهدف.

وها هوذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع النبي صلى الله عليه وسلم يكلم قتلى بدر بعد ثلاث، فيستغرب ذلك منه فيقول يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا)[95]

---

92 - البرهان: 3 / 40

93 - سورة الفتح: آية 1

94 - والحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب فيمن أسهم له سهماً، رقم الحديث: 2736

95 - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة، رقم الحديث: 2874

فالنبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يثبت أن هـؤلاء القتلـى يـسمعون، ولكـنهم لا يستطيعون الإجابة، فبدأ بالقسم ثم توجه بالخطاب إلى سائليه فنفى عـنهم أن يكونـوا أقدر على السمع من هؤلاء الأموات، وهو ما يجعل المخاطب يفكر في هذه الحقيقـة فيصرفه ذلك عن إنكار ما بعدها، وهو قدرة هؤلاء على السمع مع عدم اسـتطاعتهم الإجابة، لإقامة الحجة ولسد طريق الإنكار على المخاطب.

4- الإيجاز:

وإيجاز الكلام له من الفائدة ما لايعلمه إلا العربي، الذي يفهم معنى الكلمة ويقدر الإشارة، وفي القسم كأن المقسم ــإن كان النبي صلى الله عليـه وسـلم أو غيـره ــ بقسمه قد اختصر عبارات كثيرة يحتاج إليها للدلالة على ما يريد قوله أو يريد توكيده، فهو أسلوب موجز يؤتى به للاستدلال على أمر ما، وهو ما لاحظناه في أقسام النبـي صلى الله عليه وسلم جميعها، ومنها مثلاً قوله: (والذي نفس محمد بيده، لو رأيتم مـا رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيت يا رسـول الله ؟ قـال: الجنـة والنار)[96]، فقد أشار بهذا القسم إلى أشياء عظيمة لا يدرك كنهها إلا الله، ولكنه عبـر عن فظاعتها بقوله: لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، خوفاً من ضياع العمـر وانـشغال الإنسان بما يودي به يوم القيامة في النار، وقد أشار الفراهي إلى إيجاز هذا الأسـلوب بقوله: (إيجاز هذا الأسلوب للاستدلال، فإن اللفظ إذا قل يتراءى المعنى متجرداً عـن حجبه فيزيده تنويراً وتأثيراً، وكأنه أرهف حده، وقرب بعده، وهذا ما يجعل الاستعارة أحياناً أبلغ من التشبيه).[97]

---

[96] - والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام في ركوع أو سجود، رقم الحديث: 426

[97] - الإمعان: ص 96

5- الأقسام في بداية الأحاديث النبوية طريقة من طرائق التنبيه ولفت الأنظار:

فما إن يسمع المخاطب القسم حتى يفتح أذنيه ويوجه انتباهه ليعلم المقسم عليه، إذ استقر في أذهان العرب أن المقسم لا يلجأ إلى القسم إلا إذا كان المقسم عليه مهماً وضرورياً، فهو وسيلة من وسائل الإيقاظ والتنبيه وحث الهمم على استماع ما يليه، لذا نرى أن القسم في الحديث يكثر في التنبيه إلى أمور خطيرة على عقيدة المسلم، وضرورية لسلامة إيمانه، ونجاته من عذاب الآخرة.

6-تنويع أساليب الخطاب خوفاً من الملل:

هو ما تلمسه الفراهي في أقسام القرآن فقال: (وربما تبدل الأسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع أو الرجاء أن ينجح فيه بعض الأساليب أكثر من بعض[98]، كما صرح القرآن الكريم فقال: **{**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**}**[99]، والنبي صلى الله عليه وسلم إذ يحذو حذو القرآن نجده ينوع في أسلوب خطابه ويلون لإيصال الفكرة وللإقناع، فالمعلم والمبلغ لا يترك سبيلاً للإقناع وإيصال الفكرة إلا سلكه.

7-إشراك السامع في استنباط الدليل:

وهو أمر يدعو إلى كسر سورته، لأن السامع إذا علم شيئاً بعد تأمل فرح به، واهتز له كما يقول الفراهي.

ومن هذا القبيل ما يظهر لنا من صيغة القسم عند النبي صلى الله عليه وسلم: لا ومقلب القلوب، والذي نفس محمد بيده، أو قوله: والذي لا إله غيره، وكلها أمور تدعو الإنسان إلى مراجعة نفسه، والتفكير فيما تعنيه هذه الأقسام من معان، فتهدأ نفسه، فالنفوس بيد الله لا يملك صاحبها من أمرها شيئاً فهي بيد خالقها يقلبها كما يشاء أو

[98] - الإمعان: ص 93

[99] - سورة الأنعام، آية: 65

يأخذها متى أراد، وهذه حقائق ملموسة لا يمكن لعاقل أن ينكرها، فيقف جنباً إلى جنب مع المقسم للوصول إلى حقيقة المقسم عليه، ومن ثم تبنيه والإيمان به وتصديقه.

8-تقديم الدليل على ذكر الدعوة:

والدليل في القسم هو تصدير الجملة بالمقسم به، وكأنه يقول: أشهد الله على أن هذا الأمر سيحدث لا محالة، إذ جعلوا الله أو المعبود عندهم شاهداً على قولهم وكفيلاً، قال الفراهي: (ولا شيء من أساليب الكلام أصلح للتصوير من القسم، فإن الذي أقسمت به دعوته كالشاهد، فأوقفته بين يدي المخاطب متمثلاً).[100]

9-إضعاف الفكرة المخالفة، وإثارة الشك فيها:

والمتكلم عندما يقسم يشعر المخاطب بصدق قوله، وهذا يجعل السامع يفكر فيما يقال، وفيما استقر في ذهنه فيؤدي ذلك إلى إضعاف الفكرة السابقة، وبدء الشك فيها على الأقل، يقول د. بدوي: (وإذا كان القسم لا ينجح أحياناً في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله)[101]، ونلمس ذلك فيما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شكى أصحابه ضعفهم وتألب الناس عليهم، وما يلاقونه من عذاب وفقر وخوف، فقال مبيناً حالة من كان قبلهم من المؤمنين وما لاقوه من الأذى ثم نصر الله لهم بعد ضعف وتأييده لهم بعد انكسار، قال: (قد كان من كان قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف

---

[100] - الإمعان: ص 99

[101] - من بلاغة القرآن، ص: 170

إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[102]، ففي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لحالة من كان قبلهم، وما كانوا عليه من الضعف، وما لاقوه من الأذى والهوان، ونصر الله لهم بعد ذلك ما يشد أزرهم، ويقوي إيمانهم بنصر الله لهم، وما يزيل فكرة الخوف من المستقبل من ذهنهم، ويجعلهم ــ وإن كانوا في ضعف وشدة ــ ينتظرون غداً مشرقاً ونصراً مؤزراً من الله تعالى، ويستهينون بما يلاقونه أمام ما لاقاه السابقون وهو ما سعى إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقصده من خلال قسمه، فيرون أن معاناتهم ما هي إلا مقدمة لنصر الله لهم وإظهارهم على عدوهم .

10-القسم أسلوب من أساليب العرب في كلامها:

وقد تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بلسانهم ونهج نهجهم، ومن عادة العرب القسم إذا أرادت توكيد أمر ما، فأقسم مسايرة للأسلوب العربي، قال السيوطي: (إن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً)[103]، ويقول د. أحمد بدوي: (لجأ القرآن إلى القسم متبعاً النهج العربي في توكيد الأخبار لتستقر في النفس ويتزعزع فيها ما يخالفها)[104]، وهو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، إذ استعمل القسم على عادة العرب في كلامها لتوكيد الأخبار والتشكيك بما يخالفها.

11- بيان أهمية المقسم عليه:

وقد أشار د. عز الدين السيد إلى هذا الأمر فقال: (والنبي لا يقسم ــ وحاشاه ــ ليجتذب القلوب لتصديقه وقد كان قبل الرسالة يوصف بالصادق الأمين، وإذاً ينصرف

---

[102] - والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم الحديث: 6544 ، عن خباب بن الأرت.

[103] - الإتقان: 4 / 46، وانظر معترك الأقران:1 /449ــ450، باب إقسامه تعالى في مواضع لإقامة الحجة وتأكيدها

[104] - من بلاغة القرآن، ص: 170

وجه اليمين إلى أن المحلوف عليه من الأمور المهمة ذات البال التي ينبغي أن يستشرف لها السامع ويتلقاها تلقي الاهتمام لما تعنيه من مدلول ديني خطير في حياة الفرد والجماعة)[105]، وهو ما يمكن أن نلحظه في جميع المقسم عليه في الحديث النبوي، إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقسم إلا على ما فيه صلاح الفرد في دنياه وآخرته، إن كان المقسم عليه أمراً تعبدياً، أو إخباراً عما سيكون في الأيام القادمة، أو ما سيكون عليه الحال يوم القيامة وكلها أمور غاية في الأهمية.

خاتمة:

وبعد، فإن القسم في الحديث النبوي أسلوب خطابي، استعمله النبي صلى الله عليه وسلم لتأكيد أهمية المقسم عليه وخطورته، وضرورة القيام به أو تجنبه والحذر منه، سواء كان المقسم عليه أمراً دينياً تعبدياً، أو أمراً غيبياً أوفتناً ستقع في المستقبل، ولعل التزام النبي صلى الله عليه وسلم بالقسم بالله تعالى هو الذي أعطى القسم سمة التعظيم، إذ تكررت في القسم النبوي عدد من الصيغ كلها قسم بالله أو بصفة من صفاته، كان أشهرها: والذي نفس محمد بيده، والذي نفسي بيده، والله، لا ومقلب القلوب، ولكل صيغة منها مدلولها وواقعها، وقد أدى القسم النبوي معاني كثيرة إلى جانب ما فيه من التوكيد، فحمل معنى التحذير، والترهيب، والترغيب، والحض، والإباحة، والتحريم، كما قدم قيمة بلاغية للكلام، وكساه ثوباً من الجلالة والوقار، فأتى الكلام فيه موجزاً، مبرزاً الجد في القول، كما ساعد في إثارة الشك فيما يعتقده الخصم، وأغنى المقسم عن الأدلة والبراهين اللازمة لإقناع السامع، سواء أكان السامع منكراً أم شاكاً أم مصدقاً، أم كان الخبر غريباً يحتاج إلى التوكيد ليعقله المخاطب ويدركه.

---

[105] - الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص: 100

المصادر والمراجع

1-ابن الأثير: (المبارك بن محمد)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، دار الفكر، ط2، 1403هـ ـ 1983م - النهاية في غريب الحديث، تحقيق محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، دار الفكر

2-البخاري: (محمد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، ضبطه ورقمه وشرح ألفاظه د. مصطفى ديب البغا، دار العلوم الإنسانية.

3-بدوي: (أحمد أحمد)، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

4-الترمذي: (أبو عيسى محمد بن سورة)، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق د. مصطفى حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1419هـ ـ 1999م

5-الجواليقي: موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، ت (465ـ540هـ)، تح: د.ف عبد الرحيم، دار القلم، دمشق.

6- جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، نقله إلى العربية أ. عبد العزيز توفيق جاويد.

7- حسين: (محمد الخضر) ، من بلاغة القرآن، تحقيق وجمع علي الرضا التونسي، 1391 هـ / 1971م

8-خليف: (يوسف)، دراسات في القرآن والحديث، مكتبة غريب، الفجالة.

9- أبو داود: (سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ت 275هـ) سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت لبنان.

10- الراغب الأصفهاني (ت 425هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق.

11- زرزور: (عدنان)، القرآن ونصوصه، مطابع جامعة دمشق.

12- الزركشي: (بدرالدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم

13- الزركلي: (خير الدين)، الأعلام، ط10، بيروت، 1992

14- زهير بن أبي سلمى، الديوان، دار صادر، بيروت.

15- السامرائي: (فاضل صالح)، معاني النحو، دار الفكر، ط2، 1423هـ/ 2002م

16- السيد: (عز الدين علي)، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، دار اقرأ، ط1، 1404 هـ.

17- السيوطي: (عبد الرحمن بن أبي بكر) - الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، 1407هـ،1987م- معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بلا تاريخ.

18- عنترة بن شداد، الديوان، دار صادر، بيروت.

19- عدي بن زيد، الديوان، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد، 1956م.

20- العيني: بدرالدين أبو محمد محمود بن أحمد، (ت 855 هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الفكر.

21- الفراهي: عبد الحميد، إمعان في أقسام القرآن ، دار القلم، دمشق، ط1، 1415 هـ ـ 1994م.

22- القطان: مناع، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط19، 1406 هـ 1986 م.

23- لويس شيخو (جمع وتنسيق) ، شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار المـــشرق، ط4 1991م.

24- مسلم: (أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيـــسابوري)، صـــحيح مـــسلم بشرح الإمام النووي، تحقيق وتعليق: د. مصطفى ديـــب البغـــا، دار العلـــوم الإنسانية.

25- ابن منظور: (مال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار الفكـــر، بيـــروت، ط1، 1976 م.

26- النسائي: (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني)، ت 303 هـــ.

27- نصار: (حسين)، القسم في القرآن، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط1

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2006/8/5.